ذكريات للذكرى ..

بقلم صباح محيي الدين

٣٠ كانون الاول ١٩٥٢

وجه باريس حيٌّ قلّبٌ فهو يضحك إذ تداعبه الشمس وتنثر على النهر ذهبها دنانير ، ويغبرُّ حين تدكن السماء وتزورُّ في الشتاء ، اما نور الخريف ، ذلك الرماد اللؤلؤي الحالم ، فهو يضفي على المدينة الغافية في حجر نهرها الاعقف كآبة تكاد ان تكون انسانية .

وأما الثلج ، فعارض غريب ، يطوّح بكل ما عهدته النفس من صور لمدينة تشابكت بها ايامها وأحلامها ، ويثير مشاعر متضاربة من الجمود والحركة في آن واحد ، كأنه حجاب على وجه جميل يداعبه نسيم رقيق ، فتظل العين عالقة بها تحاول ان تستشف ما قد يخفيه من ملامح عذبة لطيفة .

والثلج هذا الصباح لا يتساقط قطعاً كبيرة كأنها ريش البجع ، يتهادى ببطء حتى يصل الى الارض حيث يحط بجلال على بساط من المخمل الابيض ، بل تذروه شذراً ريح عابثة أرنة ، فلا تستبين المدينة من ورائه ويخيل للناظر انه في قطار سريع تغيب لسرعته معالم الطبيعة وتختلط ألوانها وخطوطها .

وصَفَتِ السماء مساءً ، فخرجت اسير في الشوارع في ليلة رأس السنة هذه ، حتى وصلت الى رصيف نهر السين ، ووقفت انظر الى اغصان الاشجار التي سوّدها الشتاء وجللها الثلج بنثير من السكر الابيض كأنها اشجار خالدة لعيد ميلاد ابدي ، او جنيات النهر يحلمن على ضفافه في ثياب من الفرو ، محتشمات فلا يُحِرن كلاماً ولا يأتين بحركة .

وغاصت قدماي في الثلج كأنها تسيران على بساط من العشب الندي او على شاطيء رملي . وتمنيت — في هذه الليلة الفريدة — لو ان الثلج دافيء كما هو ناعم ، دفء رمل البحر او لو انّ رمل البحر في نعومة الثلج وبياضه ، فما ألذ ان يتقلب الجسم العاري الخارج من الماء في الصيف على هذا الفراش من النَدْف الابيض .

آغي Agay — ٢٥ تموز ١٩٥٢

انا هنا منذ خمسة عشر يوماً ، بين بحرين ، بحر من الشمس وآخر من الماء الازرق الدافيء . لا أقرأ الا القليل ، ولا اكتب الا بعض البطاقات ، حتى لأهلي ، واستسلم للكسل ، كقارب استرخى للتيار يحمله في جري بطيء بين ضفتين ملؤهما العشب والزهر والشجر .

والحياة هنا قد اختزلت الى اقصى الحدود ، فلم تعد سوى هذا التبّان الذي فرضه المجتمع ، وتلك الخيمة التي ألجأ اليها اقلّ وقت ممكن ، والطعام اتناوله مع عشرات امثالي من المقيمين في هذا المخيم للطلاب . والوقت لا وجود له هنا ، فقد خلفته ورائي في باريس حيث تقرضه اسنان الاوتوبوس والمترو بسرعة مخيفة .

أكل وشرب واستحمام في الماء وفي الشمس...

وشيء غير هذا لا تكمل الحياة من دونه ...

لقد توسطت الشمس قبة السماء ، وغام الأفق تحت اشعتها المنصبة كشآبيب من التبر ، وترجرج خطه كأن البحر يتنزى ويتمطى في كسل واسترخاء تحت دغدغات الشمس . وانقلبت في كسل كي اعرض ظهري للشمس ، وفتحت عيني في فتر لأرى هل تغير الرمل او البحر منذ اغمضت عينيّ عنهما ؟ ونظرت في اتجاه الماء فلم ابصر اول الامر شيئاً سوى كرات وخطوط سوداء ونيرانية وحمراء وصفراء ، ما عتمت ان انجلت شيئاً فشيئاً . واستقرت عيناي على كرة مشعثة تطفو على بعد خمسين متراً في البحر ، وامعنت النظر فاذا هو رأس فتاة شقراء تسبح في اتجاه الشاطيء ، وكدت اغمض عينيّ من جديد — إذ لم يكن هذا المشهد جديداً عليّ ، فالمخيم نصفه فتيات . ولكن خيل إلي انني لم اشاهد هذا الرأس من قبل ، فتركت عيني مفتوحتين فضولاً .

وبعد هنيهة اخذ الرأس يعلو عن سطح الماء ، وانحسر الماء عن فتاة تتعثر في خطواتها ، فيصنع لها الموج خلاخيل من الزبد الابيض . واتجهت نحو الشاطيء الذى كنت لاصقاً برمله ، ولما كانت تقف بيني وبين الشمس ، فقد بدت في اول الامر هائلة الحجم ، صُبّت من نور ، تصل بين زرقة السماء وشقرة الرمل ، ويرسم البحر خلفية زئبقية لجسمها .

واعتادت عيناي النظر اليها فاذا هي شقراء يضحك في عينيها ربيع سنيها العشرين ، وتقهقه في لذة حيوانية لهجمات الموج الذي يغسل قدميها وهو يموت على الساحل ثم ينسحب رويداً إذ يمتصه الرمل .

وما زلت اذكر تلك الرعشة التي ملأت نفسي ، اذ امتد ظل هذا الجسم حتى وصل الى ركني الدافيء ، ووقفت تلك الفتاة امامي ، يسيل النور على اعطافها ذهباً مصهوراً ، لا يخفي

منها تبانها «البيكيني» شيئاً يذكر ، كأنها ثمرة ناضجة من ثمار هذا الصيف الجواد :

لم يُبق منهـــا وهج الحرور سوى ضياء في ظروف نور

... اما اسمها فكان « كارين » ، وهي سويدية تزور اوربا على الدراجة مع رفيقة لها ، ولا تعرف من الفرنسية الا نتفاً ، وتجيد الانكليزية الى حد ما . ولما كنت الوحيد في هذا المخيم اتكلم الانكليزية فقد لزم احدنا الآخر . وما اسهل الصداقات وما اسرعها في هذا الجو حيث يخلع المرء القيود الاجتماعية مع ثيابه ويخرج من البحر وقد ترك فيه آخر آثار الرياء البشري .

وفي المساء ، نزلنا جمعاً من الرفاق ، من مخيمنا القائم على تل تظلله اشجار الصنوبر وتملأ جوانبه شجيرات الآس الناضحة عطراً الى مقهى صغير على شاطىء البحر ، حيث كنا نقضي امسياتنـا نتسامر ونشرب «الباستيس» — وهو أقرب شيء الى العرق — ونرقص او نظل الساعات الطوال نراقب القطر الحديدية وهي تمر سراعاً في اتجاه ايطاليا او فرنسا ، تحمل مئات الاشخاص نحو مصير لا نعلمه ، لكل منهم حياته وآماله وهمومه .

وكانت الليلة مقمرة ، والقمر مكتمل البهاء ، ينثر عـــلى الطبيعة نوراً لؤلؤي الزرقة ، يخرج بالاشياء عن حقيقتها النابضة بالحركة والدم ، ويحيلها — الى جوهرها — عناصر لا ارضية من عالم الاحلام .

ولست ممن يحبون الرقص الحديث ، اذ افضل عليه رقص العصور السابقة ، الثامن عشر او السابع عشر ، أو الرقصات الفولكلورية او حتى رقص «السماح» العربي البحت . ولو خيرت لاخترت « البيبوب Be-Bop » لانه خير رقص يعبر عن حياتنا الحاضرة المحمومة السكرى بالسرعة والقلق . ولكن هذا القمر ، وذلك الباستيس ، وجو السَّمر ، ونار تموز ، وشباب « كارين » حملتني على مثل بساط الريح فاذا بي ارقص كسائر الرفاق ، ولم تنقض الا هنيهة حتى ابتعدنا عن الراقصين وسرنا على الرمل وطلبت اليها ان تخلع حذاءها ففعلت وفعلت مثلها ، ودخلنـا الماء المشبع بعدُ بدفء النهار .

وكانت الموسيقى تأتينا من بعيد ، فقد ضرب بيننا وبيننا جدار من الظلام ، وجدار آخر من شوقنا وانجذابنا .

وأخذنا نرقص من جديد ، رقصاً هزجاً رفيقاً ، وحطمت خطواتنا القمر الى آلاف الكسَر ، واتسعت حول اقدامنـا حلقات من النور حتى سور الظلمة التي كمن وراءها الليل يتحفز كالغول لينقضّ على هذا المقهى المرتج بالنور والموسيقى ، كأنه باخرة أُوسقت شباباً ونغماً تمخر عباب الليل البهيم .

ولم تكن رقصتنا مما عهده بشر ، فقد مازجت الموسيقى جسمينا ، وبعض الخمار ؛ وركبنا شيطان الرقص فأخذنا نتحرك في مكاننا كأننا نتأرجح على حبال غير منظورة من النغم البدائي الذي رافق مولد الكائنات وانبثاق الأزهار ، لا يقطعه سوى موجات تلحس ارجلنا ثم تنكفىء مذعورة مخلفـة وراءها وشيشاً على رمل الشاطىء وحصبائه .

ووقف الزمن والبحر والقمر ينظرون الينا وقد لفنا الشوق من فرع الى قدم .. وفي اليوم التالي امتطت « كارين » دراجتها وانطلقت على الدرب المشمسة عائدة الى السويد .

١٠ آب ١٩٥٢ — انتيب Antibes متحف بيكاسو

البحر !

انه هنا يملأ الافق ويفيض على السماء ، وأحس وجوده القريب حتى امام لوحات بيكاسو وصوره وصحافـــه التي وهبها لهذا المتحف ، او كأن انتاج بيكاسو ليس الا صورة عن هذا الصيف المتكيء على البحر كأنه فتي يتفجر حياة وحيوية .

وهذا المتحف ما اجمله على ضيقه ، كان قصراً لحكام مقاطعة نيس حين كانت نيس ايطالية ، ثم وقع في ايدي بلدية «انتيب» فلم تجد له مهمة خيراً من هذه ، ووهبه بيكاسو عدداً من آثاره من لوحات ورسوم وصحاف من القيشاني . ورب مستغرب — عن حق او غير حق — اسلوب بيكاسو في التصوير والتلوين ، ولكن رسومه تنتزع الاعجاب وتهز النفس لذة فنية خالصة ، لا سيما وبيكاسو قد اختار لها من المواضيع ما يمثل هذا الشاطىء البديع خير تمثيل ، فها هي آلهة الميثولوجيا تتراكض وتتراقص في اندفاع طلقٍ أو ها هو راع ينفخ في قيثارته في اطارٍ من الشجر ، وقد اقعت امامه ظبية تصيخ السمع الى انغامه كأنها اسيرة سحر .

و « بيكاسو » — اذ يخلق هذه العوالم المائجة لذة عيش ونبض حياة — لا يستعمل سوى الورق الأبيض وقلم الرصاص العادي . ولكن اية يدٍ تلك التي تخط الخطوط وترسم الاشخاص والاشجار والحيوانات ! انامل سكنتها آلهة الفن منذ سبعين سنة ، فما تعرف الخطأ حين تخط ، وكأنها اذ تضع القلم على الورق ، يتآمر القلم والورق للخلق والابداع ...

باريس

صباح محي الدين